حلاوة وطلاوة علت قوافيه الماتعة

إن كانَ قد ملكَ القلوبَ فإنَّه ... مَلكَ الزمانِ بأرضِه وسمائهِ

الشمسُ من حُسَّادِه والنصرُ من ... قرنائه والسيفُ من أسمائهِ

أين الثلاثة من ثلاثِ خلاله ... من حسنه وإبائه ومَضائهِ

مضتِ الدُّهورُ وما أتين بمثله ... ولقد أتى فعجزنَ عن نُظَرائهِ

يا لطيف! ما هذا الكلام الشريف، ارجع البصر كرتين إلى هذه الأبهة اللفظية كقوله: «ملك القلوب»، وما فيها من قوة وأسر ونفث سحر، وهذا ليس معروفًا عند شعراء الصحراء، وضعاف الأدباء، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأبدان، ثم جعل هذا الملك مُسَلمًا للمدوح، وإنما أثبت له ملك الزمان بأرضه وسمائه، ثم طالع تشبيهه للمدوح بالشمس في الحسن، والنصر في الإباء، والسيف في المضاء، ولكن في تقسيم شاعري رائع، يناديك من أطراف قلبك إلى التيقظ، والتمتع بمسارح الجمال، ومرابع الخيال، في قالب فني كله رواء وطلاء، يذوب رقة، ويندى رشاقة، ويسكب لطفًا، وهذا سر أهمله كثير من الشعراء؛ لأنهم يأتون إلى معنى مكشوف بلفظ ساذج، ليس عليه حلة من الإبداع، كقول جرير في ممدوحه:

تعوَّد صالحَ الأخلاقِ إنِّي ... رأيتُ المرءَ يلزمُ ما اسْتَعَادا

والحمد لله على السلامة، فما زادنا جرير على أن وزن لنا كلامًا لو تركه بلا وزن كان أسهل، أو كقوله:

أقلِّي اللومَ عاذلَ والعتابَا وقولي إن أصبتِ لقد أصابا

فانظر إلى هذا التقرير البارد والشعر الإخباري الثقيل.

وهذا ابن دريد يقول لنا في مطلع مقصورته:

يا ظبيةَ أشبهُ شيءٍ بالمها ترعى الخُزامى بين أشْجارِ النَّقا

فقد أفادنا أن الظبية مثل المها ـ ما شاء الله! ـ وأنها ـ والحمد لله ـ ترعى الخزامى بين أشجار النقا، هذا كل ما في البيت، فلا تتعب نفسك في الغوص على معانيه، وإخراج جواهره، فليس فيه إلا ما ذكرت.

وهذا الرازي يقول:

نهايةُ إقدامِ العقولِ عقالُ وغايةُ سعي العالمين ضَلال

فأنت أمام كلام منطقي قانوني مدون، ليس له حلاوة، ولا طلاوة، ومعناه يفهمه الحاضر والباد.

وأين هذا من قول المتنبي:

وأنا الذَّي اجْتلبَ المنيةَ طرفُه فمن المطالبُ والقَتيلُ القاتلُ؟!

فما أبدع ما قال! وما أمتع ما نطق به! فهنا يحق للذهن أن يتأمل، وللروح أن تنتشي، فهو يقول لك:

أنا المتسبب بنظري إلى الجمال حيث جنى طرفي عليّ، وأوردني حياض الموت، فلن أطالب أحدًا بديتي، ولو كنت قتيلًا، فأنا القاتل في الحقيقة؛ لأنني نظرت بطرفي فقتلت.

وأين أقوالهم من قوله:

قد كنتُ أشفقُ من دمّعي على بَصَري فاليومَ كلُّ عزيزٍ بعدكُم هانا

فشكرًا لهذا الإبداع والتألق الفني، واللهيب والجذب، وكأنها أمثال في الذيوع والانتشار، وضع يدك على قلبك واقرأ معي قول أبي الطيب:

وما شَرَقي بالماء إلا تذكّرًا لماء بهِ أهلُ الحبيبِ نزولُ

يقول: إنني إذا غصصت بالماء وأنا أشربه على المائدة، فبسبب تذكري ماء نزل به أهل الحبيب، فلما ذكرت ذلك شَرِقْت بهذا الماء، واختنقت من شدة الأسى واللوعة. وقد أكرر هذا البيت كثيرًا فأغالب دمعي، وأعصر غصصًا كامنة في نفسي.